الفصل الثالث
السلطان والخارج

عبد الحميد والدول الكبرى:كان السلطان شخصياً غير مرغوب فيه بالنسبة للدول الأوروبية؛ لأنه يمسك في قبضته ملايين المسيحيين، وبصفته خليفة للمسلمين فإن له نفوذاً وسلطاناً روحياً على رعايا الدول الأوروبية المسلمين ولم يكن من الممكن لأي من الدول الكبرى أن تقتطع أجزاء من الدولة العثمانية في أوروبا أو البلقان في ظل وجود عبد الحميد الثاني؛ لذا أخذت فكرة إسقاطه تكتسب ثقلاً كبيراً بين أعدائه وفي مذكرات السلطان عبد الحميد يقول رحمه الله في رسالة كتبها بعد خلعه من الحكم إلى شيخه محمود أبو الشامات انني لم أتخلَ عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم جون تورك وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا على أن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم ١٥٠ مليون ليرة إنجليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي واجدادي من السلاطين والخلفاء وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك فقبلت هذا التكليف الأخير وحمدت المولى وأحمده أنى لم أقبل أن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة .

ويلاحظ أن السلطان عبد الحميد كان بعيداً عن سفك الدماء أو أسلوب الاغتيالات وتصفية معارضيه، وكان لا يلجأ إلى عقوبة السجن إلا في القليل، ثم يغيرها بالنفي .

سوء الأوضاع الخارجية: اتفقت الدول الغربية على الإجهاز على الدولة العثمانية التي أسموها تركة الرجل المريض، ومن ثم تقاسم أجزائها،بالإضافة إلى تمرد البوسنة والهرسك ، الذين هزموا الجيش العثماني وحاصروه في الجبل الأسود، وإعلان الصرب الحرب على الدولة بقوات منظمة وخطرة، وانفجار الحرب الروسية سنة ١٨٧٧م، وضغط دول الغرب المسيحية على الدولة لإعلان الدستور وتحقيق إصلاحات في البلاد، بالإضافة إلى قيام الثورات في بلغاريا بتحريض ومساعدة من روسيا والنمسا.

ثورات البلقان : قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للانفصال عن الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م واستطاع العثمانيون اخمادها،ورغب السلطان عبدالحميد في منع الدول الأوروبية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية ، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة في الضرائب بين المسلمين والنصارى ولم يرض ذلك السكان، فعادوا إلى الثورة التي قمعت أيضاً، لكن النمسا التي كانت وراء الثورة وترغب في ضم البوسنة

والهرسك إليها استمرت في تحريض السكان ضد الدولة العثمانية، فعملت النمسا مع روسيا وألمانيا وفرنسا وانجلترا على الطلب من السلطان القيام بإصلاحات فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة لم يتقبلوا ذلك وهذا يدل على أن المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبررات واهية، وحقيقة الأمر أنهم يريدون التدخل في شؤون الدولة بشكل مباشر وغير مباشر لإضعافها والإطاحة بها.

كما قامت ثورة البلغار في نفس الوقت الذي قام فيه نصارى البوسنة والهرسك بثورتهم بدعم من النمسا والدول الأوروبية خاصة روسيا، فقد تأسست جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات جهدها لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية احتج البلغار على ذلك، فقاموا بثورة وساعدتهم روسيا والنمسا بالسلاح والمال؛ وتمكنت الدولة العثمانية من القضاء على الثورة، فأخذت الدول الأوروبية تثير شائعات عن المجازر التي ارتكبها العثمانيون ضد النصارى والعكس هو الصحيح وبهذه الشائعات أثير الرأي العام الأوروبي ضد الدولة العثمانية، وطالبت الحكومات الأوروبية بإتخاذ إجراءات صارمة ضد العثمانيين ومنها حصول البلغار على استقلال ذاتي وتعيين حاكم نصراني لهم.

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وكانت روسيا ترغب في توسيع حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم وشرع الجنود الروس فى التدفق سراً على بلاد الصرب، والجبل الأسود، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب الواسعة واجتمع مندوبوا الدول الأوروبية في استانبول وقدموا اقتراحات للدولة من أهمها: تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين يكون ولاتها من النصارى، وأن تشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات لإماراتي البوسنة والهرسك أيضاً، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحاً منفرداً مع الصرب سحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصرب، وأن يرفع العلم العثماني والصربي دليلاً على السيادة العثمانية.

الحرب الروسية العثمانية: كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية وقد نص بطرس الأكبر في وصيته للروس في الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة على ضرروة الصراع الحضاري ضد العثمانيين إلى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود ويقول بطرس الأكبر في الفقرة التاسعة من وصيته

نقترب من القسطنطينية والهند بقدر الإمكان فمن يملك القسطنطينية ملك العالم بناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين وفي الفقرة الحادية عشرة يقول :نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيين من أوروبا وأهتمت روسيا بتلك الوصية وفي عصر السلطان عبد الحميد الثاني كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوروبية في البلقان واليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية ولم تكتف بذلك بل عملت على قيام دول نصرانية مستقلة مثل رومانيا، وبلغاريا والصرب واليونان وبعد أن حقق العثمانيون انتصارات رائعة في البلقان استعدت روسيا للحرب ثم أعلنتها لاهوادة فيها ضد الدولة العثمانية وانضمت رومانيا إلى روسيا ودخل العثمانيون في حرب طاحنة مع الروس، وعبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب واستولت على بعض المدن التابعة للعثمانيين ومنها تيرنوه ونيقولبلي التي تقع في بلغاريا حالياً كما استولى الروس على بعض النقاط المهمة والمعابر المؤدية إلى البلقان،وقام السلطان عبدالحميد بتغيير كبير في قيادات الجيوش العثمانية للتصدي للغزو الروسي، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة بلفنه التي تقع في بلغاريا حالياً وهي من أهم المعابر إلى البلقان، لكن القائد العثماني الشجاع الغازي عثمان باشا تصدى لهم بكل شجاعة ، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ومع ذلك نجح ذلك القائد العثماني الفذ في التصدي للروس مرة

أخرى، مما جعل السلطان العثماني يصدر مرسوماً خاصاً بالثناء على ذلك القائد وأمام هذا الصمود حاول الروس تغيير سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار، حاولوا منع الإمدادات من الوصول إلى الجيوش العثمانية فيها، وفي الوقت نفسه عززوا قواتهم وحضر القيصر الروسي بنفسه المعركة وانضم أمير رومانيا إلى روسيا وكان معه ١٠٠ ألف مقاتل، فأصبحت الكفة العسكرية في صالح الروس، حيث تجاوز عددهم ١٥٠ ألف مقاتل ففرضوا حصاراً على ثلاثة خطوط على القوات العثمانية، ومع هذا فإن العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الأبطال، ورغم أن عددهم كان قرابة ٥٠ ألف مقاتل، فإنهم لم يكتفوا بذلك الصمود، بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إما النصر وفك الحصار عنهم أو الشهادة.

وقاد عثمان باشا قواته التي انحدرت على الأعداء وهم يهللون ويكبرون فسقطت أعداد منهم شهداء على أيدي الروس، ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين والخط الثاني، واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت إشاعة قوية بين جنده باستشهاده ففت ذلك في عضدهم، وحاولوا الرجوع إلى المدينة،ولكن بعض قوات الروس أصبحت بداخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيون في العراء بين نيران العدو المختلفة، فأضطروا

إلى الاستسلام للقوات الروسية وكان ذلك عام ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م، وقد سلم القائد العثماني نفسه وهو جريح إلى الروس الذين كانوا معجبين به ويشيدون بشجاعته وإقدامه،حتى أن القائد العام للقوات الروسية قام بتهنئة عثمان باشا على دفاعه الرائع وأعاد له سيفه احتراماً لقدرته القتالية وصبره وأرسل عثمان باشا إلى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام ١٨٧٧م، واستقبله القيصر بكل مراسم الاحترام ولم يعامل عثمان باشا معاملة الأسير.

وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب في البلقان على التحرك ضد العثمانيين وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فشغلتهم عن الروس، الذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدة وبالفعل تمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا عاصمة رومانيا حالياً ولم يكتف الروس بهذا ، بل توجهوا جنوباً ناحية العاصمة العثمانية القديمة، ووصلوا إلى مواقع لا تبعد سوى خمسين كيلومتراً عن استنبول ، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئاً إلى أبعد الحدود وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيين والروس في الجانب الآسيوي حيث وصل الروس إلى الأناضول ، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة أحمد مختار باشا على الروس في أكثر من ست معارك، مما جعل السلطان عبدالحميد يصدر مرسوماً بالثناء عليه،

وقد عاود الروس الهجوم علي تلك المناطق مرة أخرى وتمكنوا سنة ١٢٩٥هـ من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها.

وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوروبا وآسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستيفاس عام ١٨٧٨م وعقدت هذه المعاهدة في ٣ مارس عام ١٨٧٨م ووقعها صفوت باشا عن الدولة العثمانية وهو يبكي وكان لابد أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية فلم يكن السلطان عبدالحميد راضياً في الأصل عن دخول هذه الحرب لذلك لم يصدق على المعاهدة وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة، حتى أقنع بريطانيا بالوقوف إل جانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانوه من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، لكي تصرف روسيا النظر عن الحرب، واستطاع تحقيق مكاسب للدولة، وقللت البنود الخسائر في المعاهدة الأولى.

ودلت أحداث المعاهدتين على عبقرية السلطان عبدالحميد السياسية، التي تمثلت في إحداث النفور بين روسيا وألمانيا أيضاً وقد ذكر بعض المؤرخين أن في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذبح السلام الأوروبي ، فعرض على

بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس والشام وعلى النمسا البوسنة والهرسك وعلى روسيا البوغازين البسفور والدردنيل وغير ذلك من أملاك السلطان غير أن هذه العروض لم تدرج في مقررات المؤتمر وهكذا فإن مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الامبراطورية العثمانية التي أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها كما أنه يسجل تعهد بريطانيا وفرنسا بالمحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية غير أن بريطانيا وفرنسا قد كشفتا عن نواياهما الاستعمارية ، فاحتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١م نظير احتلال بريطانيا لقبرص واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م معلنة أن احتلالها مؤقت وهكذا كانت النتيجة من الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ولمواجهة هذه الأوضاع المتردية كان على السلطان أن يتخذ لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الاسلامية لكي يعمل على تكتل كافة المسلمين من حوله في الداخل والخارج.